الشعر ودوره في تهذيب الأخلاق

د. خالد علي إدريس محمد

ورد أن الآداب هي ثروة الأمم الفكرية، والحضارة هي التي تصنع المجتمع البشري الذي تسوده قيم الخلق والأدب والسلوك الحسن والخير والشر. ولأن العلاقة بين الأخلاق والأدب علاقة وثيقة متينة، ولأن الأدب هو التعبير عن المجتمع وعن قضاياه، وهو محاولة الإفادة من كل يتصل بهذه الحياة والتعبير عنها بصورة جميلة؛ ولأن الشعر هو لسان الأدب الناطق،والشعر هو الكاميرا التي تصور هذه الحياة في صورة جميلة فقد بيّن الشعر ما للأخلاق أهمية بالغة وتأثير كبير في حياة الفرد والجماعات والأمم، وكما أن للأخلاق مقياس ومعيار، والشعر عاطفة وتخييل، وهدف الأخلاق التهذيب، وهدف الشعر الإمتاع، ويلتقي الاثنان في مدح الفضيلة وتمجيدها وذم الرذيلة وتحقيرها، فقد لعب الشعر دورا كبيرا منذ زمن بعيد في تهذيب السلوك الإنساني وكان له من دور فاعل في تنمية كثير من الحاجات الإنسانية مثل التربية الوطنية والحفاظ على الهوية وتربية النفوس التربية الفاضلة، وليس بخاف ما وصل إليه مستوى المجتمع العربي والإسلامي الآن من تدهور علمي وحضاري وفكري، وقد أدى ذلك إلى تدني في المستوى الخلقي والسلوكي، فهي إذن أزمة قيم بات المجتمع بعيدا عنها، وقد ذهبت هذه القيم في ظل الزحف الحضاري الغربي الذي صنع حاجزا بيننا وبين الدين وتعاليمه السمحة التي تدعو إلى مكارم الأخلاق. وقد حفل القران الكريم بالأخلاق وبالسلوك الإنساني، وقد بينت سور القران الكريم وآياته أسس الأخلاق ومكارمها، وكذلك اعتنت السنة النبوية بالأخلاق والمعاملات، فنجد في كثير من الأحاديث النبوية الدعوة إلى مكارم الأخلاق وتهذيب السلوك.

من خلال كل هذا أتت هذه الورقة بعنوان: (الشعر ودوره في تهذيب الأخلاق) ، لنذكر الناس بعادتهم السمحة ونرجعهم إلى الوراء قليلا لعلهم يتذكرون ما كان يدعو إليه نبيهم الكريم، وقد عالجت الورقة هذا الموضوع من عدة جوانب: بينت معني الخلق وأنواع الأخلاق ومجلات حسن الخلق في القران والسنة، وسرد ما ورد في الشعر العربي من الجاهلي وإسلامي في مكارم الأخلاق والقيم السمحة التي كان يتحلي بها السلف من الأمة، ونبين ما هي الجوانب التي دعا إليها الشعر من كرم،وشجاعة ، وأمانة وعفة ، وإعانة ضعفاء، من القيم السمحة التي تربي الناشئة على حسن الخلق ومكارمه، وكل ذلك يعالج من خلاص آيات وأحاديث نبوية ونصوص من الشعر. ولم يتسع المجال إلى ذكر الكثير من النماذج واكتفينا ببعضها، على أن نترك المجال إلى باحث آخر.

مقدمة :

كانت الحياة الإنسان في بداية وجوده على الأرض غير منظمة تعمها الفوضى، ولا تحكمها قواعد وقوانين، إلى أن بدأت الرسالات السماوية للأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هداية الناس ، في تعريف الناس بكيفية التعامل مع بعضهم البعض، وكيفية التعامل مع الله سبحانه وتعالى، بإتباع أوامره واجتناب نواهيه، وكل ذلك يتم عن طريق مع معرفة الأخلاق الحسنة وحسن التعامل.

الأخلاق هي أساس التعامل بين البشر، وبها ترتقي الأمم والمجتمعات، وكم من أمم مسحت من على وجه الأرض بسبب سوء التعامل بين أفرادها وانتشار الفساد،وكم من حاكم قامت ضده الثورات لعدم عدله على رعيته، ومالربيع العربي عليكم ببعيد.

فالأخلاق هي أساس كل مجتمع مهما كان كبيرا كالوطن، أو صغيرا كالأسرة،ومن هنا يبدأ الإنسان حياته، في محيطه الصغير البيت والمدرسة والجامعة، ثم محيطه الكبير المجتمع والوطن ومنها يكتسب الإنسان أخلاقه ويتربى على هذا الأخلاق سواء كانت حسنة أم قبيحة.

صارت مفاسد الأخلاق تهدد الأمن النفسي والمجتمعي، وتهدد المستقبل وهي للأسف حالة انحدار مستمر نحو الهاوية والنهاية المريعة، وللأسف لا نرى جهودا حقيقية في مجتمعنا العربي والمسلم عموما موجهة نحو التشخيص الصحيح والعلاج

الناجع، مع أن مشاكل الأخلاق مهدد يعصف بكل الجهود التنموية في كافة المجالات.

معنى الأخلاق في اللغة والاصطلاح:

للدخول في عمق هذه المشكلة نتساءل ما معنى الأخلاق ؟

معنى الأخلاق في اللغة: جاء في اللسان: (الأخلاق جمع خُلُق، والخلق – بضم اللام وسكونها – هو الدين والطبع والسجية والمروءة) [١].

وقال الراغب الأصفهاني: (الخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد لكن خص الخَلْقُ بالهيئات والأشكال المدركة بالبصر، وخص الخُلُقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة) [٢].

وعند الجوهري:(الخَلْقُ: التقدير... والخليقة الطبيعة....والخلقة بالكسر:الفطرة....والخُلْق والخُلُقُ: السجية) [٣].

وقال الفيروزابادي في القاموس:(ال خَلق:التقدير،والخُلُقُ بالضم وضمتين: السجية والطبع والمروءة والدين) [٤].

يرجع إلى ذلك أن أصل الكلمة مأخوذ من مادة (خلق)، وتدل على تقدير الشيء، يقول ابن فارس:(ومن هذا المعنى الخُلُقُ وهو السجية؛ لان صاحبه قد قُدِّر عليه... والخَلاق النصيب؛لأنه قد قدر لكل احد نصيبه) [٥].

وورد في المصباح:(واصل الخلق التقدير،يقال خلقت الأديم للسقا إذا قدرته له، وخلق الرجل القول خلقا افتراه واختلقه) [٦].

وقال القرطبي:(وحقيقة الخُلُقُ في اللغة:هو مأخوذ به الإنسان نفسه من الأدب، يسمى خُلُقاً، لأنه يصير كالخِلْقة فيه) [٧].

أما ما ورد في الاصطلاح: فقد ذهب الجاحظ بقوله:(الخُلُقُ هو حال النفس، بها يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختبار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل،وغير ذلك من الأخلاق المحمودة) [٨].

وعند الجرجاني:(الخُلُقُ عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية،فان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقا حسنا، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي مصدر ذلك خلقا سيئا) [٩].

من كل ما سبق نخرج بان الخُلُقُ صفة فطرية أو مكتسبة مستقرة في الإنسان،وهي تؤثر عليه في سلوكه،أما أن يكون سلوكا محمودا من الأفعال الحسنة وهنا يسمى بالأخلاق الحسنة، أو يكون سلوكا مذموما من الأفعال السيئة وهنا يسمى أخلاقا بالخلق السيئ.

يحضرني سؤال هنا ما هي مصادر الأخلاق ؟

وللإجابة على هذا السؤال نبدأ بالشيء الذي يفرق ما بين إنسان وحيوان – باعتبار أن الحيوان لا توجد فيه صفة الأخلاق – وهو

١- العقل: فعندما يكون العقل سليما يكون الإنسان متوازنا، ويتبع هذا التوازن أخلاق متوازنة ايجابية.

٢- العلم: توجد علاقة موجبة بين مستوى العلم والأخلاق والعكس صحيح، اذ كلما تفشى الجهل ساءت الأخلاق وتدنت مكانة الإنسان.

٣- الدين الصحيح: وهو مصدر الأخلاق التي لا ترتبط بمنافع ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان.

٤- القانون: إذا طبق بشكل صحيح وعادل تترسخ القيم الأخلاقية الحميدة في المجتمعات وتصبح سلوكا تلقائيا.

٥- المجتمع: المجتمعات السوية تعلي من قيمة الصدق والأمانة ، والمحافظة على المواعيد والوفاء بها وغير ذلك من الصفات الحسنة.

٦- الضمير الشخصي: وهو البوصلة التي تحرك الشخص نحو الخير أو الشر، بناء على ترسيخ القيم فيه عبر مراحل عمره وما اكتسبه من أخلاق.

٧- الضمير العام: ونقصد به هنا المجتمع برمته، حيث انه ذا تأثير في بناء الفرد، ومهمته استئصال ما يراه فاسدا، والبقاء على ما يراه صالحا تتربى عليه الأجيال

يتبادر إلى الذهن ما كل ما سبق سؤال وهو كيف نستعيد بنيتنا الأخلاقية السليمة التي غرسها فينا الإسلام بتعاليمه السمحة ؟.

وبالرد عليه لابد أن نتأكد من قيمة وأهمية الأخلاق في حياتنا، إذ يري البعض أن الأخلاق أصبحت شيء من التاريخ، وأن الحياة الحديثة والتي تربي جيل اليوم عليها تقوم على التطور العلمي والمنفعة والعائد السريع.

وبالنظر إلى ما يقوم حياة المسلم ويجعلها حياة آمنة مطمئنة تكمن أهمية

الأخلاق الحسنة من أنها:

١- امتثال لأوامر الله ورسوله في فعل المعروف والنهي عن المذموم، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [١٠] أمرت هذه الآية بالتخلق بالأخلاق الحسنة،ونهت عن الأخلاق الذميمة.

٢- الأخلاق الحسنة احد مقومات شخصية المسلم، فهي تمثل الصورة الباطنة للإنسان والتي محلها القلب، ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ [١٢]

٣- الأخلاق الحسنة عقيدة وشريعة: الارتباط بين الأخلاق والعقيدة شيء وثيق وذلك في قوله تعالى: (اتْلُ مَا أوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾) [١٣]، إذ إن الصلاة الصحيحة تنهي العبد عن فعل الفواحش وتجعله مستقيما وذا أخلاق حسنة.

٤- تأثير الأخلاق في سلوك المجتمع: أثرها في الفرد بزرعها الفضائل من صدق وأمانة وغيرها من الفضائل الحسنة، وأثرها في المجتمع فهي بناء المجتمع القويم الذي ينشي أجيالا صالحة.

فالعمل المدعوم بالتواصي بالحق والصبر في مواجهات المغريات والتحديات من شانه إن يكون محصنا قويا لا تنال منه عوامل التردي والانحطاط.

الأخلاق في القرآن الكريم:

وردت مكارم الأخلاق في عدة آيات من كتاب الله العزيز، تضمنت المبادي والصفات والقواعد المكونة للمنهج الأخلاق ي عموما في حياة المسلم، ويتجلى ذلك في قول الله تبارك وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [١٤].

اشتملت هذه الآيات على صفات عديدة تنظم علاقة الإنسان بغيره، وقد راعت الجوانب المختلفة من حياة الإنسان، فضمنت من الناحية التعبدية إقامة الصلاة والمحافظة عليها في جماعات مما قوي أواصر الأخوة والجماعة، مع الخشوع فيها،ويعني ذلك التواضع والخوف والتذلل لله عز وجل وبذلك تحقق القيمة الأخلاقية العظمى، فضلا على المحافظة على الوقت والدقة في المواعيد وهي سبيل تعليم الالتزام والمحافظة على المواعيد. وضمنت الآيات كذلك أداء الزكاة ولها علاقة بالجانب الاجتماعي، من سد حاجة المحتاجين وتزكية أواصر الأخوة والتكافل حتى يكون المجتمع متماسكا معافا لا دخله عوامل الفرقة والشتات. وكذلك علاقتها بالجانب النفسي لما فيها من تزكية للنفس وطهرتها من الأدناس ومساوئ الأعمال. قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ [١٥].

إضافة إلى التربية على جملة من مكارم الأخلاق : كالإحسان والبذل والبر والإنفاق والرحمة والمودة والإخوة ونبذ الشح والبخل.

وكذلك تضمنت الآيات في الجانب الاجتماعي تنظيم علاقات الناس مع بعضهم البعض، كأداء الأمانات، وحفظ العهود، والوفاء بالوعد.

وفي الجانب الشخصي: الأعراض عن اللغو، والعفة.

ومن الآيات الكريمة أيضا والتي حثت على مكارم الأخلاق ونهت عن الرذائل قوله تعالى: (إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾) [١٦].

تؤصل هذه الآيات إلى مبادي وقواعد مكارم الأخلاق التي يجب إن تربى عليها المسلم.

مكارم الأخلاق في السنة النبوية الشريفة:

قدوتنا في الأخلاق الحميدة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، كيف وقد مدحه رب العزة بقوله:(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾) [١٧]. وقد وصفته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها بان خلقه القران؛ بمعنى امتثال القرآن أمرا ونهيا، وانقيادا وعملا، وظاهرا وباطنا، وكان له القرآن سجية وطبعا، كيف لا وهو معلم البشرية ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا يجزي بالسيئة السيئة بل كان يعفو ويصفح. إنه صلى الله عليه وسلم مدرسة تربوية متكاملة أرسل إلى الناس ليهديهم من الضلال إلى النور.

اهتمت الشريعة بقضية الأخلاق وما لها من فضائل، ودورها في نشر الفضيلة في المجتمعات، وقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم غاية دعوته ببيان موجز؛ فقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). يدخل في هذا معنى هذا الحديث الخير المطلق وصلاح الأمة، والفضل والمروءة والإحسان والعدل، وكل ما له مساس بالأخلاق الفاضلة.

ومن فضائل الأخلاق الحسنة؛ أنها سببا في دخول الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) [١٨] رواه أبو داود . هذه بشرى عظيمة لمن تحلى بالأخلاق الحسنة.

ومن فضائل الأخلاق الحسنة أيضا: أنها سببا في حب الله للعبد، قال صلى الله عليه وسلم: (أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خُلقا) [١٩].رواه الطبراني في الكبير .

وهي أيضا من أسباب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته، يقول صلى الله وسلم: (إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا) [٢٠]. رواه الترمذي

ومن فضائل مكارم الأخلاق أيضا أنها أثقل شيء في الميزان يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخُلق).[٢١] رواه الترمذي.

الأخلاق الحسنة تضاعف الأجر والثواب، قال صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار) [٢٢]رواه أبو داود:٤٧٩٨. وكذلك هي خير أعمال العباد، قال صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما اخف على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما، قال: بلى يا رسول الله، قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفس محمد بيده ما عمل الخلائق بمثلهما) [٢٣] رواه الطبراني.

كما أن الأخلاق الحسنة تزيد الأعمار وتعمر الديار، قال صلى الله عليه وسلم: (حسن الخُلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار) [٢٤]رواه احمد ١٥٩/٦.

من كل مسبق نجد أن المنهج النبوي في تحقيق غاية مكارم الأخلاق منهجا متكاملا، جديرا بالوقوف عنده طويلا، والتأمل فيه مليا حتى نربي أبناءنا على مهج قويم متماسك؛ لأن التربية شاقة وصعبة تحتاج إلى المتابعة والملازمة، وقبل ذلك المنهج الواضح السليم، والمنهج النبوي خير معلم وخير كتاب لعامة الناس.

هذه بعض الأحاديث من المنهج النبوي في التربية – والأحاديث في هذا السبيل كثيرة – وسعنا المجال لذكرها مجتمعة ونترك المجال إلى باحث أخر يقطف لنا من ثمرات الروضة النبوية الشريفة فيما يخص التربية النبوية من خير معلم للأجيال.

مكارم الأخلاق في الشعر العربي:

العلاقة بين الأدب عموما علاقة وثيقة؛ لأن الأدب هو تعبير عن المجتمع، وعن قضاياه، وهو محاولة الإفادة من كل ما يتصل بهذه الحياة، ومن ثم التعبير نها بصورة أدبية مناسبة، وليس هناك ما يفصل بين الأدب وبين الحياة بشكل عام؛ لان الأدب هو صورة جميلة أو مجلة لهذه الحياة؛ ولان الأدب والشعر على وجه الخصوص هو الناطق الرسمي بلسان كل ما يدور في الحياة من بهجة وألم.

وإذا رجعنا إلى طبيعة الأدب فننا نجدها مكونة من خلال منجزات

ومعطيات في هذه الحياة، ومن ضمن هذه المنجزات والمعطيات الأخلاق ؛ لان الأخلاق قوام المجتمع وعماده،ولا يمكن أن يستقيم أي مجتمع بدون أخلاق.

الملاحظ منذ عصور الأدب الأولى أن الأدب كان حريصا على تسجيل وتصوير الجوانب المختلفة لهذه الحياة – الشعر الجاهلي نموذجا – وبقدر مساهمة الأدب عموما والشعر خصوصا في التعبير عن القضايا الاجتماعية والأخلاقية، ودور الشعر في إرساء وبث الروح الأخلاقية في المجتمع، لدور في الوصول إلى كل الأسماع – سوق عكاظ نموذجا – فقد لعب دورا مهما منذ العصر الجاهلي حتى زماننا هذا في إرساء الأسس الأخلاقية، والتربوية السليمة، ومن خلال ذلك تتضح لنا مهمة الأدباء والشعراء ودورهم الفعال في نشر الفضيلة ومكارم الأخلاق – هذا إذا استبعدنا الشعر الفاحش – فنجد كثير من الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق سواء كان جاهليا أم إسلاميا أم حديثا، إذا أخذنا في الاعتبار انشغال الشعر بمنجزات الحياة الحديثة، وعصر السرعة والمكاسب – وأذاننا تسمع الكثير من الشعر الهابط – الذي لا يقدم دورا في الحيان عموما.

ولأن الأخلاق تتجسد سلوكا وأفعالا في العلاقات الإنسانية، فقد وجد الشعر مجالا رحبا للمدح بمكارم الأخلاق من خلال المدح والفخر، سواء كان فرديا أو جماعيا، ومنه يأتي التعبير عن النفس الإنسانية في تجلياتها المتنوعة، وقد احتفى الشعر بمكارم الأخلاق منذ العصور الأولى وسعى إلى تجسيدها حتى ظهرت في سلوك الإنسان، وترجمها الإنسان في حياته وبشر بها ونشرها قولا وفعلا.

ازداد اهتمام العربي بمكارم الأخلاق بعد دخول الإسلام، وقد أعطى الإسلام هذه المكارم مكانة سامية فانسجم معها العربي والتزم بها ، بجانب التزامه الديني، فأصبحت قولا وعملا للإنسان المسلم.

تصور بعض الباحثين أن الشعر الجاهلي قد اغفل جانب الأخلاق ؛ لما عرفوه من الواقع العربي قبل الإسلام من قتل وثار وحروب لا تكاد تنتهي، وان معيار الحكم النقدي لشعر تلك الفترة، كان معياراً نقدياً فنياً، دون النظر إلى المعيار الأخلاق ي، لغياب القانون، وما ينفي هذا القول حديث النبي صلى الله عليه وسلم:(إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق)، وذلك يعني أن هناك قيمة أخلاقية موجودة أساس في طباع العربي فأتى الإسلام واصل هذه القيمة.

من المعلوم جليا أن حياة العربي قبل الإسلام لم تكن كلها ثارات وحروب، ولم تحول العصبية القبلية بينهم وبين التحلي بمكارم الأخلاق ، وهذه العصبية هي التي دفعتهم إلى الأخذ بالثأر وانتزاع الحق بالقوة، ورفض الظلم والتحلي بالشجاعة من اجل أهداف نبيلة، كما لم يكن أمر القبيلة فوضى في الداخل والخارج، وإنما كان هناك تضامن من كل أفراد القبيلة على الخير والشر، وتربطهم صلات ونظم بالقبائل الأخرى، وقيم خُلقية موروثة يلتقون عندها، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- الشجاعة:

تعد الشجاعة من أهم القيم الخليقة الموروثة عند العربي واجلها، وهي حلة الفخر والزهو التي يرتديها، وهي جزء من الفضائل الإنسان والتي إذا اجتمعت مع العقل والعدل والعفة أصبح العربي في القمة وفي مقدمة القوم، وهي قيمة تحفها المخاطر ويهددها الموت في غمرات الحروب، أو سكون الرقاد، يقول عنترة بن شداد: [٢٥]

بكرت تخوفني الحتوف كأنني
أصبحت عن الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل
لأبد أن أسقى بماء المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي
إني امرؤ سأموت إن لم اقتل

وكان لزاما على الحر يركب الأهوال والمخاطر من اجل الحصول على الأموال لإعانة المساكين والفقراء، كما هو ديدن الصعاليك؛ الذين حطموا الفوارق الطبقية، والسطوة الاجتماعية آنذاك. يقول عروة بن الورد، مبينا هدفه من الغزو والمخاطرة مخاطبا زوجته التي تخاف عليه من الموت: [٢٦]

ذريني أُطوف في البلاد لعلني
أخليك أو أغنيك عن سوء محضري
فأن فاز سهم المنية لم أكن
جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وان فاز سهمي كفكم عن مقاعد
لكم خلف أدبار البيوت ومنظر
فجوع لأهل الصالحين مذلة
مخوف رداها أن تصبك فاحذر

امن عروة بهذا المبدأ والتزم به، معرضا نفسه للهلاك من إعانة وإغاثة المحتاجين، ومن يبذل نفسه رخيصة يوم اللقاء من اجل هدف نبيل، يفضل الموت بالسيف، ويرفض ان يموت حتف انفه ن وهكذا كان فخرهم، وهذه هي القيم الأخلاقية التي تربوا عليها، نفس أبية

تكره الجبن والعار وتفضل الموت في بسالة وشجاعة راضية مختارة، حيث كانوا يتمادحون بالموت في المعارك، ويهاجون به عند الفراش، لذا صبر العربي على جمر المعارك ولا مجال للنكوص والتعريد؛ لان ذلك سبة وعيبا. يقول السمؤال بن عاديا في هذا الشأن: [٢٧]

وما مات منا سيد حتف انفه
ولا طل منا حيث كان قتيلُ
تسيل على حد الظباة نفوسنا
وليست على غير الظباة تسيل

ويقول الحصين بن الحمام:

تأخرتُ استبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياةً مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تُرمى كُلومنا
ولكن على أقدمنا تقطر الدُّما

٢- الصبر:

المتصفح لحياة العربي في الجاهلية يجدها مليئة بالصبر، الصبر على شظف العيش، الصبر على الحروب، الصبر على وهج الصحراء، لذلك أتى شعرهم عن الصبر صورة صادقة لما يعانونه من أهوال وويلات ن من جوع ن ومن خوف،ومن حرب، وغيرها مما يجري على مسرح الصحراء.

يقول نهشل بن ضمرة، محدثا عن وهج الصحراء وحرها:[٢٨]

ويم كأن المصطلين بحره
وإن لم تكن نارا قيام على جمر
صبنا له حتى يبوخ وإنما
تفرّج أيام الكريهة بالصبر

وكذلك الصبر على الحرب – يعد في حد ذاته من الشجاعة عندهم مع الاعتراف بقوة العدو، وفي ذلك جاء شعرهم اكثر صدقا، يقول في ذلك زهير بن الحارث الكلابي:[٢٩]

سقيناهم كأسا سقونا بمثلها
ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

الحديث عن الصبر في ميادين القتال يقود إلى الحديث عن الصبر بوصفه قيمة خُلقية، تحلى بها العربي ودرب نفسه عليها لمواجهة أزمات الصحراء، ونلحظ لن شعرهم في هذا الشأن مليء بالأسي والحزن، وهو خارج من نفس أجبرت على الصبر ولا حياد لها عنه، يقول الجمال العبدي في هذا الشأن:[٣٠]

إن الكريم صبور كيفما انصرفت به
الصرُّوف إذا ما افلق الفرق

وكذلك الصبر على الجوع في الفلوات وتأبى عليه نفسه العزيزة أن يمد يده إلى الناس يستجدي عطفهم، فالموت عنده أكرم من حياة الذل والاستجداء، يقول عنترة:[٣١]

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

وفي هذا المضمار ضرب الصعاليك أروع الأمثلة من شعر صادق خارج من نفس عفيفة تأبى الذل والهوان، يقول أبو خراش الهذلي:[٣٢]

وإني لأثوي الجوع حتى يملني
فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القراح فانتهي
إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم

من هذا الصبر أتت عفة النفس وعدم سؤال الناس وهي من أسمى القيم الإنسانية.

٣- الوفاء:

تربي العربي في الصحراء على قيمة الوفاء،لأنها في حقه مدح، ونزه نفسه عن الغدر والخيانة لأنها في حقه مذمة وعار وتشهير وسبة بين العرب، فصار الوفاء قولا وعملا واتى الشعر في هذا المجال صدقا لا زيف ولا رياء فيه؛ لان الوفاء من المحامد التي تخلد الذكر بين الأنام.

يقول الحادرة لصاحبته (سمية) مفتخرا: [٣٣]

أسُمي ويحك هل سمعت بغدرة
رُفع اللواء لنا بها في مجمع
إنا نعف فلا نُريب خليفنا
ونكفُ شح نفوسنا في المطمع

وخير ما يضرب به المثل في الوفاء السمؤال بن عاديا – وقصدته المشهورة – يقول السمؤال:[٣٤]

وفيت بذمة الكندي إني
إذا ما خان أقوام وفيتُ
وأوصى عاديا يوما بالا
تُهدم يا سمؤال ما بنيتُ
بنى لي عاديا حصناً حصيناً
وعيناً كلما شئت استقيتُ

حفظ السمؤال الوصية وأدها على وجهها كما حفظها، ومن هذا يتضح أن القيم السامية والفاضلة تورث وتظل باقية في العقب.

ومن جوانب الوفاء، الوفاء بعهود الصداقة والمودة – ومن طبيعة الحياة ان تتغير أوجه الحياة فتبعد من كان قريبا، و يخون من كان صديق وفيا.

يقول عدي بن زيد متحسرا على عهود صداقة مضت وتغير أهلها ، ويخرج الزفرات من نفس متحسرة على أيام خوالي مضت وتغير أهلها وليس من طبعة الخيانة وعدم الوفاء:[٣٥]

وما بدأتُ خليلاً لي أخا ثقةً

بريبة ولا رب الحلّ والحرم
يأبى لي الله خونَ الأصفياءِ وإن
خانوا ودادي لأني حاجزي كرمي

٤- الكرم:

العربي مفضالا بطبعه، على الرغم من حياة الشح والقحط والجفاف في الصحراء، فالا على نفسه إلا جودا وكرما، رضع لبان السخاء والبذل والإيثار من ثدي هذه الصحراء، فصار يرقب الضيف ويوقد النار عالية لعلها هدي إليه السابلة وطوارق الليل ن وأصبح لهذا الضيف مكانة عظيمة، بها يرتفع الذكر، ويبلغ الكريم المجد الذي يطير به في عالم الشهرة والمثل، وجاء في ذلك شعرا قصد منه الشهرة والمجد تطير بذكره الركبان ' وأضحى يبذل لهذا الضيف كل وسائل الراحة من طعام ومبيت، فأضحى بذلك الكرم وأجب مقدس:

يقول طفيل الغنوي في ذلك: [٣٦]

فراشي فراشُ الضيف والبيتُ بيته
ولم يلهنِ عنه غزال مقنعُ
أُحدثه إن الحديثَ من القِرى
وتكلأ عيني عينه حيث تهجعُ

هذه قمة الإيثار، وأروع ضروب الكرم من بذل الراحة والاحتفاء بالضيف.

يقول حاتم الطائي:[٣٧]

وإني اعبد الضيف مادام ثاويا
وما في إلا تلك من شيمة العبدِ

من ذلك يتضح أن الكرم من خصال الأسياد، وان العربي قد كلف به وجعله في مقدمة الفضائل الخُلقية التي حرص عليها لأنها من المروءة التي بذل فيها كل ماله وما يملك، يقول حاتم الطائي في ذلك:[٣٨]

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد
وما كنت لولا تقولون سيدا

إن الاستجابة عند العربي تجاه الكرم نابعة من نفس تروم الحوافز والتخليد، ومن هذه الحوافز:

أ- تحقيق الثناء والحمد: يقول حاتم الطائي مخاطبا زوجه مأوية:[٣٩]

إذا ما صنعت الزاد فلتمسي له
أكيلاً فاني لست أكله وحدي
أخاً طارقا أو جار بيت فأنني
أخاف مذمات الأحادي ثمن بعدي

ب - التعود على فعل المكرمات: يقول حاتم الطائي:[٤٠]

وقائلة أهلكت بالجود مالنا
ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعيني إنما تلك عادتي
لكل كريم عادةٌ يستعيدُها

ج - صون العرض:إذ أن الكرم يصون العرض، يقول حاتم الطائي:[٤١]

ذريني يكن مالي لعرضي جُنةً
يقي المالُ عرضي قبل أن يتبددا

٥- العفة والحياء وحسن الجوار:

تأبى نفس العربي التعرض للنساء، شهامة وعفة وخلق كريم؛ بل هو المنوط به حفظ الأعراض والدفاع عنها، وهو السيد الأبي الذي يبذل كل ما يملك من اجل المحافظة على عرضه، ومن تسول له نفسه المساس بأعراض الآخرين فقد عرض نفسه وقومه إلى حرب لا هوادة فيها، والتعرض إلى الأعراض أمر حرمته شريعة الجاهلي قولا وفعلا؛ لأنه يقلل من النخوة والرجولة في عرفهم، فأصبح غض الطرف عن الجارة - أو قل عن النساء مجملا - من النخوة والرجولة.

يقول عنترة بن شداد، ضاربا أروع الأمثلة في العفة والحياء،لأنه لا يزور جارته واصلا رحمها إلا إذا كان زوجها موجودا حفاظا عليها، ونلحظ أن هناك شيئا من الأخلاق الحميدة بالفطرة فعنترة بطلا خلقي قبل أن يكون بطلا يصرع الأعداء في الحرب، يقول: [٤٢]

وأغشى فتاة الحي عند حليلها
وإذا في الحرب لا أغشاها

هذه بطولة خلفية مرطبة بالفطرة. ويغض بصره ان بدت جارته حتى تدخل بيتها ولا يتبعها بنظراته، وفي ذلك غضاضة عليه:[٤٣]

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها
إني امرؤ سمح الخليقة ماجدُ
لا أُتبعُ النفس اللجوجَ هواها

وأروع ما يقل في العفة وحفظ الجوار قول حاتم الطائي: [٤٤]

بعيني عن جارات قومي غفلةٌ
وفي السمع مني عن حديهن وقرُ

ويقول عنترة في ذات المعنى:[٤٥]

وإن جارتي ألوت رياح بيتها
تغافلتُ حتى تستر جانبه

ويقول حاتم مؤكدا على حفظ الجوار ومشدد فيه وناهيا عن التجسس والتلصص لجار وناظرا إلى محارمه - وهي قيمة أكدها الإسلام ورفع من قدرها والأحاديث في حسن الجوار كثيرة - يقول: [٤٦]

إذا ما بت اختلُ عرس جاري
ليخيفني الظلام فال خفيتُ
أأفضح جارتي وأخون جاري
معاذ الله أفعل ما حييتُ

عفة أكيدة نابعة من نفس صادقة طاهرة، تعاف ارتكاب الإثم، وتؤكد على

اكتساب الفضائل التي تعلى من الذكر والثناء الحسن، لذلك أتى قوله قمة صادقة نابا من نفس ملؤها الإيمان بحق الجار الذي أكده الإسلام فيما بعد.

يقول الشاعر الأموي مسكين الدرامي:[٤٧]

أعمى إذا ما جارتي خرجت
حتى يواري جارتي الخدرُ
ويصمُ عما كان بينهما
سمعي وما بي غيره وقرُ

في هذا لقول نرى أن القيمة السامية (العفة) في الحفاظ على حقوق الجار ازدادت سوما ورفعة بعد الإسلام، فقد عبر الدرامي عن بصره بالعمى واتى بما لم يأتي به (عنترة) في امتثال المروءة والعفة ومكارم الأخلاق ؛ لأنه عطل حساسة البصر من أساسها، بينما (عنترة) ألغى وظيفتها فقط، وهذا يؤكد أن مكارم الأخلاق في الإسلام قائمة على أسس أهمها تقوى الله عز وجل وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

يقول جرير بن عطية:[٤٨]

أعف عن الجار القريب مزاره
واطلب أشطان الهموم الأباعد

فقد جعل من إكرام الجار تعظيم حرمته وحرمة داره وعرضه.

وقد أتى الفرزدق بجملة من مكارم الأخلاق مفتخراً بقومه بقوله:[٤٩]

لا قوم أكرمُ من تميم إذا عَدَتْ
عُود النساء يُسقن كالآجالِ
الضاربون إذا الكتيبة أحجمت
والنازلون غداة كل نزالِ
والضامنون على المنية جارهم
والمطعمون غداة كل شمالِ

هم م الفرسان الذين يرجعون السبايا،وهم الشجاعان ساعة النزال، وهم الذين يحمون جارهم من الموت، الكرماء الذين يطعمون ايام القحط والجدب، وبذلك يكون قد حاز قومه على كل المكارم.

كثيرة هي القصائد التي تشيد بالقيم الخليقة ومكارمها، ولا يتسع المجال هنا لحصرها، ونترك المجال إلى باحث أخر يجوب غمار الأدب العربي منقبا عن حسن الخلق حتى تعم الفائدة الجميع

الخاتمة :

نستطيع القول من النماذج السابقة أن للشعر دور كبير في إرساء دعائم مكارم الأخلاق، وله الدور الرائد في نشرها، هذا إذا أردنا أن نضع الشعر في ميزان الصدق الأخلاقي.

أما في الجانب الأخر فننا نجد بعض الشعراء ببعيدين عن الصدق الأخلاقي، وفي أشعارهم ما يدعو الفاحشة والرذيلة، وقد سقطت من خلال أشعارهم جملة من القيم السمحة التي تحلى بها المجتمع العربي، وهناك نماذج كثيرة في الشعر الجاهلي، والأموي.

عرضنا في بحثنا الموجز هذا نماذج من القران الكريم، والسنة النبوية الشريفة – مما يعزز قيمة مكارم الأخلاق كمنهج تربوي إسلامي – بعث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لإتمامه.وعرضنا كذلك نماذج متخلفة من الشعر الجاهلي والإسلامي – الذي تحدث عن مكارم الأخلاق – حتى نساعد في التذكير بهذه المكارم السمحة، في عالم مضطرب، لا نقول فسدت أخلاقه ولكن نرى هناك بعض القصور في الجانب التربوي، ولا تسمو الأمم إلا إذا حسنت أخلاقها.

تناولنا من خلاق هذه النماذج ما يؤصل لمنهج مكارم الأخلاق من الشعر العربي، وتركنا ما يدعو الفسق والفجور، وأردنا بذلك فقط أن نساهم في نشر قيمة مكارم. وعليه يمكن أن نجلي الحقائق:

- أن مكارم الأخلاق لها تأثير كبير في سلوك الفرد والمجتمع على حد سواء
- أن العمل المدعوم بالعدل من شأنه أن يبني مجتمعا سليما متماسكا.
- أن الأمم تسمو بأخلاقها وان الفساد يهلك المجتمعات.

ويمكن أن نوصي بالاتي:

- على الحكومات أن تبذل جهدا كبيرا في الحفاظ على مكارم الأخلاق في الشارع العام.
- على وزارت التربية أن تضمن الناهج التربوية القدر الكافي الذي يربي الناشئة على فضائل مكارم الأخلاق.
- على المجتمعات المسلمة أن تعزز من قيمة مكارم الأخلاق بشر الفضيلة وتطبيقها ، والحاسبة على التقصير فيها.
- على الأسر مراقبة أبنائها والتأكد من سلامة سلوكهم ، ومن يصادقون.

الفهارس:

١- ابن منظور: لسان العرب،ج١ ص ٨٦.
٢- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القران الكريم، ص ٢٩٦.
٣- الجوهري: الصحاح، ج٤، ص ١٤٧
٤- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ج٣،ص ١٣٦
٥- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص ٢١٤
٦- الفيومي: المصباح المنير، ص ٦٩
٧- القرطبي: الجامع لأحكام القران،ج١٨ ،ص١٤٩
٨- الجاحظ:تهذيب الأخلاق، ص١٢
٩- الجرجاني: التعريفات، ص ١٠١
١٠- النحل: ٩.
١٢- الحجرات: ١١-١٢
١٣- العنكبوت: ٤٥
١٤- المؤمنون: ١-١١
١٥ - التوبة: ١٠٣
١٦- الفرقان: ٦٣-٧٢
١٧- المعراج: ١٩- ٣٥.
١٨- القلم: ٤.
١٩- رواه أبو داود: ٤٨.
٢٠ - رواه الطبراني في الكبير ١٨١/١.
٢١- رواه الترمذي ٢٠/٨.
٢٢- رواه الترمذي ٢٠٠٢.
٢٣- رواه أبو داود:٤٧٩٨.
٢٤- رواه الطبراني في الأوسط ١٤٠/٧.
٢٥- رواه احمد ١٥٩/٦.
٢٧- الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنترة، تقديم مجيد طراد،ط ١دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٢، ص ١٢٨.
٢٨ - أسماء أبو بكر محمد: ديوان عروة بن الورد، شرح وتحقيق، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٨ ،ص ٦٧.
٢٩- ديوان السمؤال ط دار بيروت ص ٩١.
٣٠- ابن عبد ربه: العقد الفريد،ج ١، ص ١٠٦.
٣١ - المرزوقي:شرح ديوان الحماسة،ج١ ،ص ١٥٦.
٣٢- البحتري: الحماسة، ص ١٢٨.
٣٣- شرح ديوان عنترة، ص ١٢٧.
٣٤ - ديوان الهذليين،ت احمد الزين، محمود أبو الوفا: ج٢، ص١٢٧.
٣٥- المضل الضبي: المفضليات ت: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط ٦دار المعارف ، ص ٤٥.
٣٧ - ديوان عدي بن زيد العبادي محمد جبار،ط دار الجمهورية بغداد ١٩٦٥ ص ١٧١

٣٨- التبريزي: الحماسة، ج٢ ص ٣١٤.

٣٩- ديوان حاتم الطائي، ص ٤٤.

٤٠- المصدر نفسه ص ٤١.

٤١- المصدر نفسه ص ٤٣

٤٢ - المصدر نفسه ٤٤.

٤٣ - المصدر نفسه ص ٤٠.

٤٤- الخطيب التبريزي:شرح ديوان عنترة بن شداد، تقديم: مجيد طراد،ط دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٠٨.

٤٥ - المصدر نفسه ص ٢٠٨

٤٦- ديوان حاتم الطائي ص ٥١.

٤٧ - شرح ديوان عنترة ص ٢٨.

٤٨ - ديوان حاتم الطائي ص ٣١.

٤٩ - أمالي المرتضى ج١، ص ٤٤.